

علم السيرة وأثر القرآن الكريم في نشأته

د. عفيف الصبابطي
المعهد العالي لأصول الدين
جامعة الزيتونة (تونس)

مقدمة

من الواضح أنّ العلوم لا تظهر ولا تنشأ صدفة، بل يكون بروزها نتيجة طبيعية لعوامل ومقدمات موضوعية تتفاعل فيما بينها، فتؤدي إلى نشأة هذا العلم أو ذاك. وعلم السيرة من العلوم المهمة التي ظهرت في الحضارة الإسلامية، خضع كغيره من العلوم لهذا الناموس الطبيعي. ولا شك أنّ العوامل التي أثّرت في ظهوره، وتنوّع مدارسه، ومناهج التّأليف فيه متعدّدة : منها ما يرجع إلى عامل الاستمرار الثقافي، وتأثير تراث ما قبل الإسلام، ومنها ما يرجع إلى هذا الدين، وما جاء به من قيم ومفاهيم، وتصوّرات.

ومن الطّبيعي أن يكون للقرآن تأثير في بناء الفكر، وتأسيس المناهج، وتوجيه الاهتمام؛ وأثّر في نشأة العلوم في الحضارة الإسلامية، ومن بينها علم السيرة.

فما المراد بعلم السيرة ؟ وما الفرق بين السيرة والسنة ؟ وكيف كان تأثير القرآن في ظهور هذا العلم ؟

تعريف علم السيرة لغة واصطلاحاً

تجدر الإشارة في البداية إلى أن هناك اختلافاً في تسمية هذا العلم : فهناك من يسميه "علم المغازي"⁽¹⁾، أو "علم المغازي والسيرة"⁽²⁾، وبهذا الإسم سمّي في كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون⁽³⁾، وأبجد العلوم⁽⁴⁾. ونجد لذلك أثراً في عناوين بعض المصنّفات في هذا العلم، مثل : الذّرر في اختصار المغازي والسيرة لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي (368 هـ/ 978 م - 463 هـ/ 1071 م)، وهناك من يسميه "علم السيرة"⁽⁵⁾. ومن المصنّفات التي حملت هذه التسمية كتاب السيرة النبوية لأبي محمد عبد الملك بن هشام (ت 213 هـ/ 828 م)؛ والتسميتان علمان على مسمّى واحد.

لكنّ المعاصرين اختاروا التسمية الثانية، فمن كتب منهم عن حياة الرسول ﷺ استعمل كلمة السيرة في عنوان كتابه، مثل : دراسة في السيرة النبوية لعماد الدين خليل، والسيرة النبوية لأبي الحسن الندوي، وفقه السيرة لمحمد الغزالي.

وكلمة (علم المغازي) أو (علم السيرة) قبل أن تصبح لقباً لفنّ مخصوص، كانت مركّباً إضافياً مكوناً من كلمتين : (علم) و(المغازي) أو (السيرة). ولكلّ كلمة معنى في اللغة، ومعنى في الاصطلاح. ولا بدّ من الوقوف على معانيها، لأنّ معرفة المركّب متوقّفة على معرفة مفرداته.

(1) الشامي، محمد بن يوسف (ت 942 هـ/ 1536 م)، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، نشر دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، لبنان، 1414 هـ/ 1993 م، 4 : 10.

(2) انظر مثلاً : النديم، محمد بن إسحاق (ت 438 هـ/ 1047 م)، الفهرست، تحقيق : رضا - تجدد، طهران، 1971، 111.

(3) حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (1017 هـ/ 1609 م - 1067 هـ/ 1657 م)، نشر مكتبة المثنى، بغداد، 2 : 1746.

(4) القنوجي، صديق بن حسن، (1248 هـ/ 1832 م - 1307 هـ/ 1890 م) تحقيق : عبد الجبار زكار، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، 1978، 2 : 514.

(5) انظر مثلاً : ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله (368 هـ/ 978 م - 463 هـ/ 1071 م)، الاستذكار، تحقيق : سالم محمد عطا، ومحمد علي معوض، نشر : دار الكتب العلمية، ط 2، بيروت، لبنان، 1423 هـ/ 2002 م، 2 : 494.

أما لغة، فالعلم مصدر علم يعلم، يقال : علم الشيء عرفه. فالعلم يطلق على المعرفة، وهو نقيض الجهل⁽¹⁾، كما يطلق على مجموع مسائل وأصول كلية تجمعها جهة واحدة، كعلم الكلام، وعلم النحو، وعلم الأرض، وعلم الآثار....، ويجمع على علوم⁽²⁾.

وأما اصطلاحاً، فإنه يطلق على : "الاعتقاد الجازم المطابق للواقع"، وعلى : "حصول صورة الشيء في العقل"⁽³⁾. وهناك من عرفه بأنه : "الإدراك مطلقاً تصوراً كان أو تصديقاً، يقينياً كان أو غير يقيني"⁽⁴⁾.

وأما المغازي فهي جمع مغزى، يُقال غزا يغزو غزواً ومغزى وأصل غزواً والواحدة غزوة والميم زائدة، وعن ثعلب : الغزوة المرة والغزاة عمل سنة كاملة، وأصل الغزو القصد، ومغزى الكلام مقصده، والمراد بالمغازي هنا ما وقع من قصد النبي صلى الله عليه وسلم الكفار بنفسه أو بجيش من قبله، وقصدهم أعم من أن يكون إلى بلادهم أو إلى الأماكن التي حلوها حتى دخل مثل أحد والخندق⁽⁵⁾.

(1) انظر : ابن منظور، محمد بن مكرم، (630 هـ/1232 م - 711 هـ/1311 م)، لسان العرب، نشر : دار صادر، بيروت، 12 : 417؛ الزاوي، الطاهر أحمد، ترتيب القاموس المحيط، نشر عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثانية، 3 : 301؛ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 2 : 630.

(2) انظر : مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، 2 : 630.

(3) الجرجاني، علي بن محمد (740 هـ/1340 م - 816 هـ/1413 م) التعريفات، تحقيق : محمد باسل عيون السود، نشر دار الكتب العلمية، ط 1، بيروت، لبنان، 1421 هـ/2000 م، 157، عدد 1248؛ المناوي، محمد عبد الرؤوف (952 هـ/1545 م - 1031 هـ/1622 م)، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق : محمد رضوان الداية، نشر دار الفكر المعاصر، دار الفكر، ط 1، بيروت، لبنان، دمشق، سورية، 1410 هـ/1990 م، 523 - 524.

(4) صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، نشر الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، 1414 هـ/1994 م، 2 : 99.

(5) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، (773 هـ/1372 م - 852 هـ/1449 م)، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، نشر دار الفكر، بيروت، لبنان، 1411 هـ/1991 م، 8 : 3، وانظر : ابن منظور، لسان، 15 : 123 - 125.

وأما السيرة فهي لغةً مصدر سار يسير، وهي بمعنى السَّنة والطَّريقة (1).
ويقال : قرأت سيرة فلان : أي تاريخ حياته، وتجمع على سير (2).

لكن، كيف يعرف علم السيرة (أو علم المغازي) اصطلاحاً ؟

يلاحظ الدَّارس وهو يبحث عن تعريف لعلم السيرة، أنَّ المؤلفات التي اعتنت بالبحث في موضوعات العلوم، سكنت عن تقديم تعريف لهذا العلم. وكمثال على ذلك، نجد أحمد بن مصطفى الشهير بطاشكبري زاده (901 هـ - 968 هـ/1495 م - 1561 م) (3) يقول في كتابه : مفتاح السَّعادة ومصباح السَّيادة في موضوعات العلوم (4) : "علم المغازي والسير : ... من فروع علم التاريخ...وموضوع هذين العلمين ومنفعتهما والغاية والغرض فيهما، لا يخفى على أحد" (5).

كما نجد مصطفى بن عبد الله، الشَّهير بحاجي خليفة (1017 هـ/1609 م - 1067 هـ/1657 م) (6) يقول في كتابه : كشف الظُّنون عن أسامي الكتب والفنون : " علم المغازي والسير : مغازي الرِّسول صلى الله تعالى عليه وسلم جمعها : محمد بن إسحاق أولاً ويقال : أول من صنف فيها : عروة بن الزبير ... " (7).

وهكذا لا نظفر بتعريف اصطلاحيّ لعلم السيرة.

(1) انظر : ابن منظور، لسان، 4 : 389 - 390؛ الزَّاوي، ترتيب القاموس، 2 : 656؛ مجمع اللُّغة العربيَّة، المعجم الوسيط، 1 : 470.

(2) مجمع اللُّغة العربيَّة، المعجم الوسيط، 1 : 470.

(3) انظر ترجمته في : البغدادي، إسماعيل باشا، (ت 1339 هـ/1920 م)، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، نشر مكتبة المثنى، 1 : 143؛ الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط 3، بيروت، 1 : 241؛ كخالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، نشر : مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت، 2 : 177.

(4) تحقيق : كامل كامل بكرى وعبد الوهاب أبو النُّور، نشر : دار الكتب الحديثة.

(5) طاشكبري زاده، مفتاح السَّعادة، 1 : 283 - 284.

(6) انظر ترجمته في : البغدادي، هدية العارفين، 2 : 440 - 441؛ الزركلي، الأعلام، 8 : 138 - 139؛ كخالة، معجم المؤلفين، 12 : 262 - 263.

(7) حاجي خليفة، كشف الظُّنون، 2 : 1746 - 1747.

وإذا فسرت السيرة لغة بالسنة، فيبدو أن البحث في تعريف السنة قد يساعد على وضع تعريف اصطلاحى لعلم السيرة.

تعريف السنة لغة واصطلاحاً

أما من جهة الاشتقاق، فقد تردّد اعتبار أئمة اللغة إياها اسماً جامداً غير مشتقّ أو اسم مصدر سنّ. لكن الجاري بكثرة على السنة المفسرين والمعرّبين أن السنة اسم مصدر سنّ (1).

وأما من جهة المعنى، فقد اتّبع علماء اللغة عند تعريف لفظ السنة مسلكاً ذا ثلاث شعب :

❖ فقد ذكروا ألفاظاً مقاربة للفظ السنة من حيث المعنى وهي كالتالي : السيرة، والطريقة، (2) والعادة (3).

وحاول بعضهم إبراز الرّابط بين هذه الألفاظ، فقرّر أن سنة كلّ أحد ما عهدت منه المحافظة عليه، والإكثار منه (4). فعنصراً المحافظة والإكثار هامان، لا بدّ منهما لتكوين حقيقة السنة.

❖ وبيّنوا أن لفظ السنة لفظ مطلق غير مقيد. ولذلك نجد ابن منظور يقول عند تعريف السنة : " السيرة، حسنة كانت أو قبيحة " (5).

كما نجد الشّريف الجرجانيّ يقول : " السنة في اللغة الطريقة مرضية كانت أو غير مرضية " (6).

(1) ابن عاشور، محمّد الطاهر (1296 هـ/1879-1393 هـ/1973 م)، تفسير التحرير والتنوير، نشر الدّار التونسية للنشر، تونس، 1984، 4 : 96.

(2) ابن منظور، لسان، 13 : 225

(3) الشّريف الجرجاني، أبو الحسن علي بن محمّد (740 هـ/1340 م - 816 هـ/1413 م)، التعريفات، تحقيق : محمّد باسل عيون السّود، نشر دار الكتب العلميّة، ط 1، بيروت، لبنان، 1421 هـ/2000 م، 125، عدد : 989.

(4) الأمدي، أبو الحسن علي سيف الدين بن محمّد (551 هـ/1156 م - 631 هـ/1233 م)، الإحكام في أصول الأحكام، تعليق : عبد الرزّاق عفيفي، نشر المكتب الإسلامي، ط 1، بيروت، 1402، 1 : 169.

(5) ابن منظور، لسان، 13 : 225.

(6) الشّريف الجرجاني، التعريفات، 125، عدد : 988.

وخير ما يستشهد به في هذا المقام قول الرسول صلى الله عليه وسلم :
 " مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ
 يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا
 وَوِزْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ " (1).

فنلاحظ أن الرسول صلى الله عليه وسلم قيد لفظ السنة أولا بقوله
 "حسنة". ثم قيده ثانيا بقوله "سيئة". ففهم بذلك أن لفظ السنة يطلق لغة على
 الأمرين، ولا يتميز ذلك إلا بالتقييد بالوصف.

❖ وأشاروا إلى معنى الابتداء الذي تضمنته لفظ السنة. فكل من ابتدأ
 أمرا عمل به قوم بعده، قيل : هو الذي سنّه (2).

ويقال : سنّ فلان طريقا من الخير يسنّه، إذا ابتدأ أمرا من البرّ لم يعرفه
 قومه فاستسنّوا به وسلكوه (3).

ومن الاستعمالات التي تبرز هذا المعنى أيضا، ما ذكره ابن منظور
 حيث قال : " السنة في الأصل سنة الطريق، وهو طريق سنّه أوائل الناس،
 فصار مسلكا لمن بعدهم " (4).

ففي قوله "أوائل الناس" نلمح معنى الابتداء.

كما يظهر معنى الابتداء بشكل جليّ في الحديث النبوي الشريف
 المذكور سابقا، وهو قول النبي ﷺ "من سنّ في الإسلام سنة حسنة". ففي ذكر
 البعديّة عند قوله : "وأجر من عمل بها بعده" وعند قوله : "ووزر من عمل بها
 من بعده" تلميح إلى معنى الابتداء. ذاك هو الاستعمال العام للفظ " السنة " عند
 العرب.

(1) أخرج هذا الحديث : مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيريّ النيسابوريّ (204 هـ/820 م -
 261 هـ/875 م)، الصحيح، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، نشر : دار إحياء الكتب العربيّة
 عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط 1، 1375 هـ/1955 م، 12- كتاب الزكاة، 20- باب الحث على
 الصدقة ولو بشق ثمرة أو كلمة طيبة، وأنها حجاب من النار، 2 : 705 عدد 69-1017.

(2) ابن منظور، لسان، 13 : 225.

(3) م، ن، 13 : 226.

(4) م، ن، 13 : 226.

ولمّا جاء الإسلام استعمل لفظ السنّة استعمالاً أخصّ من الاستعمال اللّغويّ. فصارت " السنّة " تطلق على طريقة الرّسول ﷺ وسيرته فيما يتعلّق بشؤون الدّين والأخلاق.

ولمّا كان الرّسول ﷺ معصوماً، استحال أن تكون له سيرة سيّئة. (1) ومن ثمّ أطلق لفظ السنّة في مقابلة البدعة. فإذا قيل : " فلان على سنّة "، فمعنى ذلك أنّه عمل على وفق ما عمل عليه النّبيّ ﷺ والتزم طريقته. وإذا قيل : " فلان على بدعة " فمعنى ذلك أنّه عمل على خلاف طريقته ولم يلتزم سنّته (2).

ولمّا دوّنت العلوم الإسلاميّة، اختلفت اصطلاحات " السنّة " نظراً إلى اختلاف موضوعات العلوم التي تفرّعت عن دراستها. فهي عند علماء الحديث غيرها عند الفقهاء، والأصوليّين :

فالسنّة في اصطلاح المحدثين : هي ما أثر عن النّبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية أو سيرة، سواء أكان ذلك قبل البعثة أم بعدها.

وهي في اصطلاح الفقهاء : ما ثبت عن النّبي ﷺ من غير افتراض ولا وجوب، وتقابل الواجب وغيره من الأحكام الشرعيّة التّكليفية.

وهي في اصطلاح الأصوليّين : ما صدر عن الرّسول ﷺ من الأدلّة الشرعيّة ممّا ليس بمتلوّ ولا هو معجز ولا داخل في المعجز، ويدخل في ذلك أقوال النّبي ﷺ وأفعاله وتقاريره (3).

والملاحظ أن اصطلاح المحدثين أعمّ من اصطلاح الأصوليّين. فهؤلاء قصرُوا نظرهم على ما أفاد حكماً شرعيّاً عمليّاً فقط. بينما المحدثون توسّعوا، فحملوا السنّة على كلّ ما أثر عن النّبي ﷺ، سواء أفاد حكماً شرعيّاً أم لا.

(1) مهنا، سهير رشاد، خبر الواحد في السنّة وأثره في الفقه الإسلامي، نشر دار الشروق، ط 1، بيروت، القاهرة، 8، 9.

(2) الشاطبي، إبراهيم بن موسى (ت 790 هـ/1388 م)، الموافقات في أصول الشريعة، مع شرح الشيخ عبد الله دراز، نشر دار المعرفة، بيروت، لبنان، 4 : 4.

(3) الأمدي، الإحكام، 1 : 169؛ الخطيب، محمّد عجاج، أصول الحديث علومه ومصطلحه، نشر : دار الفكر، ط 2، 1391 هـ/1971 م، 18، 19؛ مهنا، خبر الواحد، 9، 10، 11.

ولتوضيح طبيعة العلاقة بين السيرة والسنة، ومن أجل التوصل إلى تعريف جامع مانع لعلم السيرة مع بيان الفرق بين السيرة والسنة اصطلاحاً، يمكننا - من خلال استعراض محتوى كتابين، أحدهما من أمّهات الكتب المؤلفة في السيرة، وهو كتاب السيرة النبوية لابن هشام (ت 213 هـ / 828 م) (1)، والآخر من أمّهات الكتب المؤلفة في السنة، وهو كتاب الجامع الصحيح للبخاري (194 هـ - 256 هـ / 810 م - 870 م) (2) - إبداء الملاحظات التالية :

❖ إن علم السيرة : هو العلم الذي يبحث في حياة النبي ﷺ منذ الولادة إلى الوفاة وما تخلل ذلك من أحداث ووقائع، دون أن يقع التعرّض لتفاصيل الرسالة الإسلامية.

❖ إن مفهوم السنة أشمل من مفهوم السيرة : فالسيرة ما هي إلا جزء من السنة، بدليل أنّ البخاريّ خصّص بعض كتب الجامع الصحيح للسيرة النبوية، وهي : كتاب المناقب، فكتاب فضائل أصحاب النبي، فكتاب مناقب الأنصار، فكتاب المغازي.

(1) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميريّ المعافريّ البصريّ، أخباريّ، نسابة، أديب، لغويّ، نحويّ، انظر ترجمته في : النديم، الفهرست، 286؛ الذهبيّ، أبو العباس أحمد شمس الدين بن محمد (608 هـ/1211 م - 681 هـ/1282 م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق : إحسان عباس، نشر : دار صادر، بيروت، 3 : 177؛ الزركليّ، الأعلام، 4 : 314؛ كحالة، معجم المؤلفين، 6 : 192.

(2) هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاريّ، محدث، حافظ، فقيه، مؤرّخ، مشارك في علوم، انظر ترجمته في : النديم، الفهرست، 286؛ الذهبيّ، أبو عبد الله محمد شمس الدين بن أحمد (673 هـ/1274 م - 748 هـ/1348 م)، تذكرة الحفاظ، نشر دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، لبنان، 2 : 555 عدد 578؛ ابن حجر العسقلانيّ، تهذيب التهذيب، تحقيق : الشيخ خليل مأمون شيحا والشيخ عمر السّلامي والشيخ علي بن مسعود، نشر دار المعرفة، ط 1، بيروت، لبنان، 1417 هـ/1996 م، 5 : 30 عدد 6745؛ ابن حجر العسقلانيّ، هدي السّاري مقدّمة فتح الباري بشرح صحيح البخاريّ، نشر دار الفكر، ط 1، بيروت، لبنان، 1411 هـ/1991 م، 663؛ القسطلانيّ، أبو العباس أحمد شهاب الدين بن محمد (851 هـ/1448 م - 923 هـ/1517 م)، إرشاد السّاري لشرح صحيح البخاريّ، نشر دار الفكر، ط 1، بيروت - لبنان، 1410 هـ/1990 م، 1 : 55؛ طاشكيري زاده، مفتاح السّعادة، 2 : 130؛ البغداديّ، هديّة العارفين، 2 : 16؛ الزركليّ، الأعلام، 6 : 258؛ كحالة، معجم المؤلفين، 9 : 52.

- انظر : البخاري، الصحيح، نشر : دار الفكر، 1414 هـ/1994 م.

❖ إِنَّ السَّيْرَةَ تَتَعَلَّقُ بِكُلِّ مَا صَدَرَ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ وَتَقَرِيرَاتٍ سِوَا تَعَلُّقِ ذَلِكَ بِالْعَقَائِدِ أَمْ بِالْعِبَادَاتِ أَمْ بِالْمَعَامَلَاتِ أَمْ بِالْأَحْوَالِ الشَّخْصِيَّةِ أَمْ بِالْقَضَاءِ أَمْ بِالْعَلَاقَاتِ الدَّوْلِيَّةِ أَمْ بِالتَّارِيخِ وَالسَّيْرِ أَمْ بِالتَّفْسِيرِ.

❖ إِنَّ مَفْهُومَ السَّيْرَةِ أَوْسَعُ مِنْ مَفْهُومِ الْمَغَازِي، إِذِ الْمَغَازِي تَتَعَلَّقُ بِمَا حَدَثَ فِي الْعَهْدِ الْمَدَنِيِّ مِنْ غَزَوَاتِ الرَّسُولِ ﷺ، فِي حِينِ أَنَّ السَّيْرَةَ تَشْمَلُ كُلَّ حَيَاةِ الرَّسُولِ ﷺ بَعْدِيهَا الْمَكِّيَّ وَالْمَدَنِيَّ، وَبِزَمَنِ الْحَرْبِ وَالسَّلَامِ. وَلَعَلَّ هَذَا الْأَمْرَ هُوَ الَّذِي حَمَلَ الْعُلَمَاءَ عَلَى تَفْضِيلِ إِطْلَاقِ لَقَبِ عِلْمِ السَّيْرَةِ عَلَى هَذَا الْعِلْمِ. إِذِ الْإِهْتِمَامُ يَجِبُ أَنْ يَعْمَ كُلَّ مَرَاكِلِ حَيَاةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَهُوَ مَا فَعَلَهُ الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ.

القرآن يؤسّس لعلم السيرة

من الخطأ إهمال دراسة دور القرآن في ظهور العلوم، نظرا إلى أهميته وأثره في فكر المسلمين وسلوكهم. بل يمكن القول إنّ القرآن كان مثلاً أعلى للمسلمين نسجوا على منواله في كافّة مناحي الحياة.

فالذي يطالع القرآن يلفت انتباهه عنايته بسير الأنبياء وأخبارهم مع أقوامهم. فقد قصّ علينا قصص عدد من الأنبياء، مثل : آدم ونوح وإبراهيم ويوسف وموسى وعيسى... قصّ علينا قصصهم بأسلوب مشوّق، يَصوِّرُ الأحداث ويرسم معالم الشّخصيّات ويبرز كيف تفاعلت مع الأحداث. قال تعالى : ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (1)؛ وقوله تعالى : ﴿ وَآتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ... ﴾ (2).

ويهدف تسجيل سير الأنبياء إلى تحقيق أمرين :

- الاقتداء بهم، قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ اقْتَدِهْ... ﴾ (3)، وذلك بأن نقّدي بهم ونحذو حذوهم وننهج منهجهم في العقيدة والقول والعمل.

(1) القصص، 28، الآية : 3، ج 20.

(2) المائدة، 5، الآية : 27، ج 6.

(3) الأنعام، 6، الآية : 90، ج 7.

- الاعتبار بقصصهم، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ... ﴾ (1)، وهو أن نعتبر بما جرى في قصصهم من أحداث ونتعظ بذلك ونستخلص بعقولنا الأسباب والنتائج من وراء الأحداث. فقصص الأنبياء مجال لإعمال العقل لفهم السنن التاريخية والنواميس الاجتماعية والإفادة من خبرات الماضين. وبهذا انكشف للمسلمين أهمية دراسة التاريخ كعلم متميز.

ثم إن القرآن يعتبر أهم مصدر يُرجع إليه في معرفة حياة النبي محمد ﷺ وسيرته : ففيه آيات كثيرة تعرضت لحياته قبل البعثة وبعدها. فقد تحدث القرآن عن يثمه وفقره، ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ (2). كما تحدث عن الوحي وتلقيه، كما في قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (3).

وتطرق القرآن إلى عداوة الأعداء وخصومة الكافرين للرسول ﷺ واتهامه بشتى أنواع المعاييب، من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تَنَتَّلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ (4). كما ذكر خروج الرسول ﷺ من مكة متخفياً مع صاحبه أبي بكر الصديق : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (5).

وفصل القرآن في الحديث عن الغزوات النبوية ومقدماتها ونتائجها وأثارها : فقال تعالى عن غزوة بدر : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ

(1) يوسف، 12، الآية : 111، ج 13.

(2) الضحى، 93، الآيات : 6 - 8، ج 30.

(3) القيامة، 75، الآيتان : 16 - 17، ج 29.

(4) سبأ، 34، الآية : 43، ج 22.

(5) التوبة، 9، الآية : 40، ج 10.

فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١﴾؛ وعن غزوة حنين : ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغِنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَوَّاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّرِينَ ﴿٢﴾.

كما حدثنا القرآن الكريم عن حياة الرسول العائلية في مواطن متعدّدة، من ذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجَكُ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبِّنْتَهَا فتَعَالَيْنَ أُمَتِّعُنَّ وَأُسرِّحُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣﴾.

بل يشتمل القرآن على هيكل السيرة كاملا، وأساسياتها، وعدد غير قليل من التفاصيل والأحداث الجزئية (4).

ثم إنّ القرآن أثنى على الرسول ﷺ بقوله تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾، وكيف لا يكون كذلك وخلقه القرآن. فما من خلق من الأخلاق العظيمة التي أمر بها القرآن إلّا وقد تجسّد في شخص الرسول قولا وفعلا على أكمل وجه وأحسنه، وتجلّى في سائر تصرفاته، في السلم والحرب، مع الأصحاب والأعداء، في السقر والإقامة. من أجل ذلك أمرنا القرآن أن نتخذ الرسول ﷺ أسوة حسنة نقتدي بها، ونحذو حذوها، وننهج منهجها في العقيدة والقول والعمل : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٦﴾.

وبهذا يظهر كيف أسّس القرآن علم السيرة، ولفت نظر المسلمين إلى دراسته والعناية به.

(1) آل عمران، 3، الآية : 123، ج 4.

(2) التوبة، 9، الآية : 25، ج 10.

(3) الأحزاب، 33، الآيتان : 28 - 29، ج 21.

(4) انظر : حمادة، فاروق، مصادر السيرة النبوية وتقويمها، نشر : دار الثقافة، ط 2، الدار البيضاء، 1410 هـ/1989 م، فصل : القرآن الكريم، 35 - 47؛ العمري، أكرم ضياء، السيرة النبوية الصحيحة، نشر : مكتبة العلوم والحكم، ط 6، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، 1415 هـ/1994 م، 47 - 49.

(5) القلم، 68، الآية : 4، ج 29.

(6) الأحزاب، 33، الآية : 21، ج 21.

التاريخ في القرآن

عمل القرآن على غرس منهج جديد في الكتابة التاريخية، منهج واقعي يعتمد الحقائق، وينبذ كل ما ليس له علاقة بالواقع من الخيالات والأوهام والأساطير والخرافات والأكاذيب. إن علم التاريخ يرتكز - في نظر القرآن - على ما ثبت حصوله في الواقع. فالأحداث التاريخية التي يعرضها القرآن هي أحداث واقعية ثبت وقوعها ثبوتاً يقينياً، لا يتطرق إليها أدنى شك، بل لا يجوز أن يتطرق إليها الشك، لأنّ الذي ينقلها إلينا ويخبرنا بها أحاط بكل شيء علماً، بحيث لا يخفى عليه شيء وهو أصدق القائلين. ومما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى بعد عرض قصة عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾⁽¹⁾. أي أنّ هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معُدل عنه ولا محيد⁽²⁾. وبعبارة أخرى: إنّ هذا المذكور من قصة عيسى هو القصة الواقعية لولادة عيسى عليه السلام ونشأته ومنهجه في دعوته.

ومن أدلة هذا المنهج القرآني في الكتابة التاريخية قوله تعالى في مطلع قصة موسى وفرعون: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾⁽³⁾. أي: نذكر لك الأمر على ما كان عليه، كأنك تشاهد وكأنك حاضر⁽⁴⁾.

كذلك يقول الله تعالى في مطلع قصة ابني آدم: ﴿وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾⁽⁵⁾. أي: واقصص على هؤلاء خبر ابني آدم، وهما هابيل وقابيل، على الجلية والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب، ولا وهم ولا تبديل، ولا زيادة ولا نقصان⁽⁶⁾.

(1) آل عمران، 3، الآية: 62، ج 3.

(2) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل عماد الدين بن عمر (700 هـ / 1302 م - 774 هـ / 1373 م)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، نشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 2، 1420 هـ / 1999 م، 2: 55.

(3) القصص، 28، الآية: 3، ج 20.

(4) ابن كثير، التفسير، 6: 220.

(5) المائدة، 5، الآية: 27، ج 6.

(6) ابن كثير، التفسير، 3: 82.

ويشبه ذلك ما جاء في سورة الكهف عند ذكر قصّة أصحاب الكهف : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ (1). وهذا الأمر كان له أثر كبير في علم السيرة النبويّة. من ذلك أنّ عبد الله بن عباس (68 هـ / 687 م) (2) لم يكن يقنع أن يستقي الخبر من مصدر واحد. ولذا نراه يقول في الرواية التي صحّح الذهبي إسناده : " إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم " (3). وهذا يكشف لنا منهجه في جمع العلم. وهو يهدف من وراء ذلك إلى التوصل إلى حقائق واقعيّة لا يتطرّق إليها أدنى شكّ.

القرآن والنقد التاريخي

ولما كانت الأخبار المنقولة عرضة للكذب والتزيّد والتحريف والتبديل بقصد أو بغير قصد، لفت القرآن أنظار المسلمين إلى ضرورة نقدها وتمحيصها حتّى يتميّز صحيحها من سقيمها. فالرّاوي النّاقِل للخبر قد يكون صادقاً وقد يكون كاذباً. فلا يجوز التسليم بما ينقله إلّا بعد التّأكّد من صدقه. ثمّ الرّاوي الصّادق قد يخطئ في نقل الخبر. ولذا، يجب التّأكّد من صحّة ما ينقله الصّادق قبل اعتماده والتّعويل عليه.

ومما يوضّح ضرورة اعتماد قاعدة النّقد والتّمحيص للأخبار قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (4). فالله يأمر بالتّثبت في خبر الفاسق ليحتاط له، لأنّ الحكم بقوله، فيكون في نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اتّبعه، وقد نهى الله عن اتّباع سبيل المفسدين (5).

(1) الكهف، 18، الآية : 13، ج 15.

(2) انظر ترجمته في : الذّهبيّ، تنكرة، 1 : 40 - 41، ترجمة : 18؛ ابن حجر العسقلانيّ، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق : عليّ محمّد الجاوي، نشر : دار الجيل، ط 1، بيروت، 1412 هـ / 1992 م، 4 : 141 - 152، ترجمة : 4784؛ الزركليّ، الأعلام، 4 : 228 - 229.

(3) الذّهبيّ، سير أعلام النبلاء، تحقيق : شعيب الأرنؤوط، نشر : مؤسسة الرسالة، ط 9، بيروت، 1413 هـ / 1993 م، 3 : 344.

(4) الحجرات، 49، الآية : 6، ج 26.

(5) ابن كثير، التفسير، 7 : 370.

ومما يشهد على صحة هذا المعنى أيضا، ما جاء في قصة سليمان بن داود، لما عرض عليه الهدد خبر ملكة سبأ، قال تعالى: ﴿قَالَ سَتَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (1). فالله يخبر عن قول سليمان عليه السلام للهدد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم: ﴿قَالَ سَتَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: أصدقت في إخبارك هذا، ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ في مقالتك، فتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك؟ (2)

ففي هذه الآية إرشاد إلى التوثق من الأخبار وكشف الحقائق. ولا سبيل إلى كشف حقيقة من الحقائق إلا عن طريق الاختبار. ولذا كان من الضروري: اختبار نقلة الأخبار لمعرفة مدى صدقهم، ومدى صحة نقلهم، واختبار مروياتهم لمعرفة مدى مطابقتها للواقع. وهو ما أفضى إلى بروز عدة علوم مثل علم الجرح والتعديل، وعلم العلل وغيرهما من علوم الحديث. (3)

وظهرت ممارسة نقد الروايات التاريخية منذ وقت مبكر جدا. فقد نقدت عائشة (رضي الله عنها) رواية عن غزوة بدر رواها عبد الله بن عمر: «فَعَنْ هِشَامَ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ عُرْوَةَ بْنِ الزَّبِيرِ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: "وَقَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَلْبِ بَدْرَ فَقَالَ: " هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ ". ثُمَّ قَالَ: " إِنَّهُمْ الْآنَ يَسْمَعُونَ مَا أَقُولُ". فَذَكَرَ لِعَائِشَةَ فَقَالَتْ: " إِنَّمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّهُمْ الْآنَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي كُنْتُ أَقُولُ لَهُمْ هُوَ الْحَقُّ". ثُمَّ قَرَأَتْ: " إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى" (4) حَتَّى قَرَأَتْ الْآيَةَ » (5).

(1) النمل، 27، الآية: 27، ج 19.

(2) ابن كثير، التفسير، 6: 188.

(3) يراجع في هذا المجال كتب مصطلح الحديث قديمها وحديثها، مثل: ابن حجر العسقلاني، نزاهة النظر شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1401 هـ / 1981 م؛ عز، نور الدين، منهج النقد في علوم الحديث، نشر: دار الفكر، دمشق، سورية، 1408 هـ / 1988 م.

(4) النمل، 27، الآية: 80، ج 20.

(5) البخاري، الصحيح، 64 - كتاب المغازي، 8 - باب قتل أبي جهل، حديث: 3980، 5: 12.

فقد مارست عائشة ما يعبر عنه بالنقد الداخلي. فأشارت إلى أن محتوى رواية عبد الله بن عمر غير مقبول لأنه يتعارض مع ما جاء في القرآن الكريم. ولذا حكمت عليها بالخطأ، وذكرت ما تراه الصواب.

التدوين وسيلة لحفظ العلم

من القيم المعرفية التي أكد عليها الإسلام، التدوين أو الكتابة. ومما يبرز انحياز الرسالة الإسلامية إلى الكتابة على أنها الأسلوب الأمثل لحفظ العلم، أن القرآن العظيم نفسه سمّي في مواضع كثيرة منه بالكتاب. من ذلك قوله تعالى : ﴿لَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (1). وتسمية القرآن كتاباً إشارة إلى وجوب كتابته لحفظه، لذلك أمر النبي ﷺ بكتابة كل ما ينزل من الوحي وجعل للوحي كتاباً (2).

وقد سجل هذا الكتاب أخبار الأمم السابقة، وكثيراً من أحداث السيرة النبوية، فكان من هذه الناحية قدوة للمسلمين كي ينسجوا على منواله، فيسجلوا الأحداث التاريخية حتى ينتفع بها اللاحقون.

بل إن القرآن يثبت أن العلم الكامل الذي لا يطرأ عليه الخطأ والنسيان هو العلم المسجل في كتاب يحفظه. هذا ما يستفاد من الحوار الذي دار بين فرعون وموسى : ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ (3). يقول الله تعالى مخبراً عن فرعون أنه قال لموسى منكراً وجود الصانع الخالق، إله كل شيء وربّه ومليكه : ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ أي : الذي بعثك وأرسلك مَنْ هو ؟ فإنني لا أعرفه، وما علمت لكم من إله غيري، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ أي : أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه. ولما أخبر موسى فرعون بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدّر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، أي : الذين لم

(1) البقرة، 2، الآيتان : 1 - 2، ج 1.

(2) انظر : ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، 1 : 221.

(3) طه، 20، الآيات : 49 - 52، ج 16.

يعبدوا الله، أي : فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول، لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره ؟ فقال له موسى في جواب ذلك : هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزئهم بعملهم في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ، وكتاب الأعمال، ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ أي : لا يشذ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئاً. يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئاً، تبارك وتعالى وتقدس، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان أحدهما : عدم الإحاطة بالشيء، والآخر نسيانه بعد علمه، فنزّه نفسه عن ذلك (1). والمراد بذلك إثبات كمال علم الله؛ فإذا كان هو المتّصف بكمال العلم بحيث لا يطرأ على علمه خطأ أو نسيان، قد حفظ علمه في كتاب، فكيف بالإنسان الذي من شأنه الخطأ والنسيان ؟ أليس من الواجب في حقه أن يحفظ علمه في كتاب ؟ وسواء أحملنا قوله تعالى : ﴿ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ﴾ على الحقيقة أم على المجاز، فإن النتيجة واحدة، وهي أن العلم الكامل الذي لا يطرأ عليه الخطأ والنسيان هو العلم المسجل في كتاب يحفظه.

وقد استدلل قتادة بن دعامة السدوسي (61 هـ / 680 م — 118 هـ / 736 م) بهذه الآية على جواز كتابة العلم. فعند الترجمة لقتادة، روى ابن سعد بسنده قال : « قيل لقتادة : " يا أبا الخطاب أنكتب ما نسمع ؟ " قال : " وما يمنعك أحد أن تكتب، وقد أنبأك اللطيف الخبير أنه قد كتب ". وقرأ : ﴿ فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ (2).

ومن المقامات التي أكد فيها القرآن على أهميّة الكتابة، وكونها الطريقة المثلى لحفظ العلم حتى لا يضيع ولا ينسى ولا يحرف ولا يبدل، مقام الحديث عن الجزاء والحساب. فأعمال بني آدم لا يضيع منها شيء، لأنها تكتب وتسجل في صحائف أعمالهم، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ

(1) ابن كثير، التفسير، 5 : 297 - 298.

(2) ابن سعد، أبو عبد الله محمد (168 هـ / 784 م - 230 هـ / 845 م)، الطبقات الكبرى، تحقيق : إحسان عباس، نشر : دار صادر، لبنان، بيروت، 7 : 230.

مَا تَفْعَلُونَ ﴿١﴾ يعني : وإن عليكم لملائكة حَفَظَةٌ كراما فلا تقابلوهم بالقبائح، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم (2).

ويظهر أثر هذا التسجيل يوم الجزاء، يوم توضع الصحف في أيدي الناس فيجدون كل ما عملوه مكتوبا محفوظا، ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (3) فقله تعالى : ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي : كتاب الأعمال، الذي فيه الجليل والحقير، والصغير والكبير ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي : من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة، ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ أي : يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي : لا يترك ذنبا صغيرا ولا كبيرا ولا عملا وإن صغر ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي : ضبطها، وحفظها (4).

من أجل ذلك، لما أراد الله تنظيم معاملات الأمة، وحفظ حقوق الناس وقطع أسباب الخصومات، أمر بكتابة عقود المداينة والإشهاد عليها معتبرا الكتابة أفضل وسيلة لحفظ الأموال لأصحابها حتى لا تضيع بسبب النسيان أو الغلط أو الإنكار أو الموت : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ (5). فهذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها، ليكون ذلك أحفظ لمقارها وميقاتها، وأضبط للشاهد فيها (6).

(1) الانفطار، 82، الآيتان : 11 - 12، ج 30.

(2) ابن كثير، التفسير، 8 : 344.

(3) الكهف، 18، الآية : 49، ج 15.

(4) ابن كثير، التفسير، 5 : 165.

(5) البقرة، 2، الآية : 282، ج 3.

(6) ابن كثير، التفسير، 1 : 722.

وغنيّ عن البيان أنّ هذه القيمة المعرفيّة كان لها أثر كبير في توجّه المسلمين منذ وقت مبكرٍ نحو تدوين علومهم وتسجيلها - من ضمنها علم السيرة النبويّة - وذلك لحفظها للأجيال اللاحقة، فعلى سبيل المثال لا الحصر :

- تمكّن الصّحابيّ عبد الله بن عمرو بن العاص (ت 65 هـ/ 684 م)⁽¹⁾ من تدوين الكثير من العلم، حتّى جمع عدّة كتب. وكان فيما سجّل بعض حوادث السيرة، حتّى قال بعض الباحثين : "إنّه ألف صحيفة في المغازي" ⁽²⁾.

- قال عبد الله بن عباس (ت 68 هـ/ 687 م) - وهو من صغار الصحابة - : "كنت أُلزم الأكابر من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من المهاجرين والأنصار، فأسألهم عن مغازي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وما نزل من القرآن في ذلك"، وقالت سلمى : "رأيت عبد الله بن عباس معه ألواح يكتب عليها عن أبي رافع شيئاً من فعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم" ⁽³⁾.

وبذلك تمكّن ابن العباس من جمع ثروة علميّة عظيمة، وعدد لا بأس به من الكتب، حتّى قال موسى بن عقبة : "وضع عندنا كُريب حمل بغير أو عدل بغير من كتب ابن عباس" ⁽⁴⁾.

ولا شكّ أنّ تلك الكتب كانت تغطّي كلّ مجالات اهتمام ابن عباس العلميّة، ومن ضمنها سيرة الرّسول ﷺ . وقد أثنى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة على ابن عباس بقوله : " ما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلم منه، ولا أعلم بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه، ولا أفقه في رأي منه، ولا أعلم بشعر ولا عربيّة ولا بتفسير القرآن ولا

(1) انظر ترجمته في : ابن حجر العسقلاني، الإصابة، 4 : 192، عدد : 4850؛ الزركلي، الأعلام، 4 : 250.

(2) الأعظمي، محمّد مصطفى، دراسات في الحديث النبويّ وتاريخ تدوينه، نشر : جامعة الرياض، المملكة العربيّة السّعوديّة، 124.

(3) ابن سعد، الطبقات الكبرى، 2 : 371.

(4) ابن سعد، الطبقات الكبرى، 5 : 293.

بحساب ولا بفريضة منه، ولا أعلم بما مضى ولا أقف رأيا فيما احتيج إليه منه. ولقد كان يجلس يوما ما يذكر فيه إلا الفقه، ويوما التأويل، ويوما المغازي، ويوما الشعر، ويوما أيام العرب" (1).

ويعدّ عبد الله بن عباس أحد الذين حاولوا جمع رسائل النبي ﷺ، إذ كانت لديه نسخ لبعض رسائل النبي مع أجوبتها من الأطراف المعينة (2). ومن شواهد ذلك حديث ابن عباس الصحيح الذي جاء فيه: «ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دَحِيَّةً إِلَى عَظِيمِ بَصْرَى فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلَمَ تَسْلَمَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأُرَيْسِيِّينَ وَيَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ"» (3) (4).

ومن شواهد ذلك أيضا ما نقله ابن قسيم الجوزية، الدمشقي (691 هـ/1292 م - 751 هـ/1350 م)، بقوله: «ذكر الواقدي بإسناده عن عكرمة قال: "وجدت هذا الكتاب في كتب ابن عباس بعد موته، فنسخته، فإذا فيه: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى، وكتب إليه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام، فكتب المنذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: ... فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى» (5).

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، 2: 368.

(2) الأعظمي، دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، 139.

(3) آل عمران، 3، الآية 64، ج 3.

(4) البخاري، الصحيح، 1 - كتاب بدء الوحي، 6 - باب، حديث: 7، 1: 6 - 7.

(5) ابن قسيم الجوزية، زاد المعاد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرؤوط، نشر: مؤسسة الرسالة، ومكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط 27، بيروت، 1415 هـ/1994 م، 3: 692.

وهذه الرواية وإن ضعّفها البعض ⁽¹⁾، فإنّ ما سبق يقوّيها ويشهد على صحّة عناية ابن عبّاس بسيرة النّبّي ﷺ ورسائله، وتقيد ذلك في كتب.

الخاتمة :

لقد حاول هذا البحث توضيح العلاقة والفروق بين مصطلحات : السيرة، والمغازي، والسنة، والكشف عن سرّ تفضيل العلماء لتسمية علم السيرة على تسمية علم المغازي، مبرزاً مدى تأثير القرآن في حياة المسلمين العلميّة من حيث المادّة والمنهج؛ وهو ما دفعهم إلى العناية بسيرة رسول الله ﷺ فجمعوا الأخبار، ونقدوها، وسجلوها في كتب، وذلك منذ بدايات العصر الإسلامي.

(1) انظر تعليق محمّد ناصر الدّين الألباني على هذه الرواية في : الغزالي، محمّد، فقه السيرة، نشر : دار الكتب الحديثّة، ط 7، 1976، 391.